

التعريب والتفتح في المغرب العربي

للأستاذ محو وعبد المولى

«تونس»

— ان التفتح شطر اللغات الحية والحضارات المتقدمة يجب ان يكون مدروسا — لا متروكا للصدف ، لكي يلعب دوره المكمل الفعال لثقافتنا ولقننا وأصالتنا .. والا انقلب الى خطر ماحق يهدد شخصيتنا وكياننا الاجتماعي والثقافي ، بالمسح ولذبذبة ... كما نرى — لا تناقض بين قيمنا القومية وقيم الاممية في مضمار الاصاله والتفتح . نستطيع ان نأخذ عن الغير العلم والتقنية والثقافة المتقدمة وذلك بتعلم بعض اللغات الاجنبية الحية بدقة واتقان — اذا أمكن — وفي نفس الوقت نتمسك بمقومات شخصيتنا العربية والاسلامية حيث تكون اللغة العربية والفكر الثوري من عناصرها الاساسية ، هذا في رأبي هو الانفتاح المنشود . أما الاختصار فقط على الاخذ من فرنسا وحدها عن طريق لغتها وثقافتها ، فهذا هو التحجر والذوبان معا .

انه التحجر لان فرنسا هي في الواقع تعتبر في خصوم بعض المبادئ العلمية والتكنولوجية متخلفة بالنسبة لعدد من البلدان المتقدمة كأمريكا وانجلترا وروسيا وألمانيا ... إلا انها تعتبر طبعاً — متقدمة تقديماً مهولاً — بالنسبة للبلدان المتخلفة جميعها . ليس من الأفضل لبلدان المغرب العربي ان تستفيد من اختصاصات — هي في حاجة اليها — ولا تجدها في فرنسا بل في بلدان أخرى متقدمة ، سواء كانت في الشرق الاشتراكي أو الغرب الرأسمالي ؟! اذا كان الجواب بنعم ، فلا شك ان تعلم لغة من اللغات

يتحدث الناس كثيراً ، هذه الايام عن الانفتاح أو التفتح ، حتى غدت هذه الكلمة مبتذلة واصابها ما اصاب بعض العملات ، اثناء الازمات الاقتصادية ، من تضخم قد قضى على جزء ضخم من قيمتها اشرايية .

ولا نعدو الحقيقة كثيراً اذا قلنا ان كلمة انفتاح أو تفتح أو تعصير ، أصبحت ، في قاموس البعض ، تملأ لانهام كل من انبرى للدفاع عن حظوظ اللغة والثقافة الوطنية ، بالتحجر والزمانة والانطواء على النفس ...

وبهذه المناسبة ، ونحن نضع بعض ملاحظتنا حول « جدلية التعريب والتفتح » أو جدلية « الاصاله والتفتح » — نؤكد لادعاء الانفتاح والتفتح والتعصير — دون ذكر اسمائهم — ان كل من يعتز بلغته وأصالته الثقافية والقومية بطريقة ، ثورية وموضوعية ، بإمكانه ان يستفيد من عملية الاخذ والعطاء مع الحركات الفكرية والعلمية في العالم . وذلك على شرط ان تكون اللغة والاصالة الحضارية والاجتماعية هي الاصل والمنطلق ، لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الاجنبية . لذلك لن يتم هذا الاخذ والعطاء الخصب الا في شروط موضوعية معينة منها :

— تحريك قيمنا الحضارية الخالدة — وتراثنا الثوري الحاضر ، وربطها بالحركات الفكرية والعلمية المتقدمة في عالم القرن العشرين .

الحية كالانجليزية او الروسية او الالمانية ...
امر لازم .

ان افتاح مغربنا على العالم المتقدم - عن طريق لغة او لغتين من هذه اللغات الحية سيساعده - دون ريب على الخروج من معركة التخلف بنجاح للانطلاق بعد ذلك - الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاشماع الثقافي والعلمي والتكنولوجي ...

وهو ذوبان وتحلل لشخصيتنا وخصوصياتنا القومية والحضارية اذا استخدمنا اللغة الفرنسية كلفة شبه رسمية واهملنا اللغة العربية .. لان الانفتاح على الثقافة الفرنسية او على اية ثقافة اجنبية اخرى يجب ان يمر عن طريق عروبتنا كما اكد ذلك العالم الاجتماعي الفرنسي جاك بارك (Jacques Berque) في عبارته الشهيرة :

«La francité du Maghreb passe par son arabité»
لذلك طالب المثقفون في تونس والمغرب الأقصى قبل الاستقلال وبعده بالتعريب والاصالة الثقافية لا لاسباب عاطفية ، وانما لانه المطمح الطبيعي والشعبي ، والسبيل الوحيد الى تحقيق ذاتيتنا ونهضتنا ، والمنطلق السليم نحو وحدة مغربنا العربي كخطوة نحو وحدة وطننا الاكبر ...

الواقع ان موضوع الاصالة والتعريب هو موضوع له حساسية خاصة ويتطلب منا قدرا كبيرا من الموضوعية والشجاعة. قد يحدث التباس في الاذهان، ونحن نثير الاسئلة والتساؤلات حول قضية الاصالة والتعريب ، قضية الساعة في مجتمعنا ، هذا الالتباس يتمثل في ان الفرض من اثاره مشكلة التعريب في تونس او الجزائر او المغرب الأقصى هو اخراج المسؤولين او التهمج على هذه السياسة التربوية او تلك . لكن الذي حدا بنا الى معالجة هذه القضية المصيرية هو حرصنا على بناء المغرب الكبير على اسس متينة ، كخطوة مرحلية نحو بناء الوطن العربي .

فالواجب يفرض علينا التقد الزويه والموضوعي لجوانب حياتنا اللغوية والثقافية وغيرها كلما شعرنا بان هناك خطرا يهدد كيانا . ان اسلوب السكوت والتغافل الكاذب هو بمنزلة الخيانة لانه يقضي على امل شعوبنا في التقدم والتحرر والوحدة .

نحن لا ننكر ان موضوع التعريب والاصالة هو موضوع خطير ، قد حفت به ملاسات سياسية

وادبولوجية ونفسية لا تخفى على احد . واذا صارحنا انفسنا وضماننا ، فهو . في حقيقة الامر قضية مصيرية تتحكم فيها السياسة والاقتصاد ، بحيث تتجاوز امكانيات رجال الفكر والتربية والثقافة في المغرب العربي . والراي عندنا ان الحل الجذري لمشاكل كثيرة يتخبط فيها مجتمعنا المغربي اليوم ، يكمن في تبني سياسة التعريب الشامل والمرحلي . فهل لنا ان نعرب ؟ وهل لنا ان نجعل من لغتنا القومية ، لغة المدرسة والادارة والشارع ، والانتاج الفكري والعلمي ...؟

اذ لا يمكن ، اطلاقا عزل المفهوم السياسي لعملية التعريب عن مفهومها الثقافي ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة !!

لذلك ونظرا لشعب قضية التعريب ، باعتبارها قضية سياسية ومجتمع ، وحضارة ، ولغة ، وشعب ومثقفين ، وهي مطروحة اليوم بثقلها الكامل والملح على الصمغدين الرسمي والقومي ...

لذلك ونظرا لكل هذه الظروف والملاسات الادبولوجية والنفسية التي تحف بالتعريب لا يسعنا الا ان نؤكد الحقائق التاريخية التالية :

اننا لا ننكر ابدا المشاكل والصعوبات النفسية والمادية التي تعرقل سير قطار التعريب ، خاصة ونحن نعلم ان الاوضاع الاستعمارية التي رزحت تحتها بلادنا ، قد فرضت علينا واقعا ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا متخلفا . ان هذه التركيبة الاستعمارية الثقيلة والبيضة قد عكست على حياتنا الاجتماعية ارتباطا لغويا وثقافيا خطيرا .

كان هدف الاستعمار في العصور الحديثة سواء كان فرنسيا او انجليزيا يرمي الى تمزيق وحدة الامة العربية وتقسيم الوطن العربي الى دويلات وكيانات سياسية عديدة ، وذلك لغاية السيطرة على مقومات هذه الامة بجماهيرها الكادحة ، اقتصاديا وثقافيا ولغويا ...

وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية الادماجية في المغرب العربي الكبير بخاصة ، هو تجهيل الجماهير بلقمتها وتاريخها وواقعها ... ومن هنا كانت وضعية شعوبنا المغربية مطابقة للحقيقة العلمية التي صدع بها ، منذ قرون عديدة العلامة ابن خلدون وهي تؤكد بان « الامة الغالبة تفرض على الامة المغلوبة حضارتها ولغتها .. » .

تركيا الفتاة . اما فى المغرب باقطاره الثلاثة ، فقد قامت محاولات شرسة على يد الاستعمار الفرنسى ، ترمى فيما ترمى اليه ، الى الفرنسة والادمج ، واحلال لغة المستعمر وثقافته محل اللغة العربية وثقافتها .

لذلك اكد المثقفون المغاربة - مرارا وتكرارا - ان لغة المستعمر ، بما تحويه من ثقافة وتقاليد لا تتماشى مع متطلبات السيادة الوطنية ولا تنسجم مع مقومات الشعب العربي فى تونس والمغرب الاقصى والجزائر . وانما هي - بالعكس من كل ذلك - تمسخ او بامكانها ان تسمخ - شخصيته وتلهيه عن مشاكله الحقيقية .

لذلك فواقع اللغة العربية يعود تفسيره لظروف تاريخية وحضارية . بدأت اثر عصور الانحطاط والظلام ، وبخاصة فى بداية العهد التركى ، ثم تطورت الامور عندما حاولت عائلات دخيلة محاربة اللغة العربية وذلك كخطوة نحو تتريك الاقاليم العربية . وكلمة تتريك هي كلمة دارجة حتى اليوم فى بعض اللهجات العربية فى المغرب وتونس وتعنى مثلا العبارة : « يحب بتركى » معناه « يريد ان يهلكنى » (1) . من هنا ندرك العلاقة المعنوية بين عملية مسخ العرب الى اترك عثمانيين . وعملية الهلاك والاهلاك .

ان عملية التتريك هذه قد نادى بها - كما نعلم - وحاول تطبيقها دعاة الطورانية من جماعة

(1) كلمة « تركية » بتشديد الراء معناها فى عامية المغرب الاقصى : سلب او نهب كل ما يملكه ، وكان « المتترك » (يفتح الراء وتشديدها) مات فصارت تركته تحت رحمة السالب . ومن هنا يتضح اشتقاق الكلمة العامية من الفصحى ، كما يتضح من استعمالها فى المغرب الاقصى بالمعنى الذى اشرت اليه .